بابُ الكتبِ الجديدة

علم النفس العملى : وضع الدكتور عزيز فريد
دكتوراه فى علم النفس ودكتوراه فى الميتافيزيقا . (مارس سنة ١٩٤٥)

هذا كتاب يمكن أن يتخذ نموذجاً لطائفة من الكتب أغرقت السوق الأدبية فى مصر والشرق العربى فى السنوات الأخيرة . وهى فى ذيوعها وانتشارها دليل على قيام ظاهرة اجتماعية خطيرة تنذر بالشر ، وتتطلب منا عناية وتنبهاً . وغير خاف أن ذيوع هذه الكتب التى تعالج مشاكل النفس وأمراضها دليل على ذيوع هذه الأمراض . ولكننا لسنا بصدد الحديث عن ظاهرة ذيوع هذه الأمراض ، فهى إحدى الأهداف الدراسية لجماعة علم النفس التكاملى التى تصدر هذه المجلة ، وتزمع إذاعة بحوثها فى هذه الظاهرة وفى غيرها كلما تم لها شىء من ذلك . فالذى يعنينا الآن هو الناحية العلمية الثقافية لهذه الظاهرة . لقد كان من نتائج ذيوع هذه الأمراض أن استجاب لها نفر ممن يحسنون تصيد الفريسة المغلوبة على أمرها سلفاً ، مستعينين فى عملهم بسلاح خطير هو سلاح النشر ، فيؤلفون الكتب فى النفس وأمراضها ، كتباً اقل ما يقال عنها إن علم النفس برىء منها .

وإلى القارىء تحليلا نقدياً موجزاً لكتاب الدكتور عزيز فريد : لا يريد المؤلف أن يهمل شرح الأسس الفسيولوجية التى تستند عليها الظواهر السيكولوجية ، فهو يبين لك فى أول كتابه كيف يندمج العقل الواعى عضوياً بالعقل الذى سماه بالباطن فيقول : « تسجل حركة العقل الواعى فى المخ إرسالا واستقبالا . وتسرى سيالاته فى الجهاز المخى الشوكى ، وتسجل حركة العقل الباطن فى الضفيرة الشمسية (كتلة ليمفاوية تقع وراء المعدة) وتسرى سيالاته فى الجهاز العصبى السمبتاوى . » والمؤلف جاد فيما يقول فهو يعود إلى هذه الفكرة السيكوفسيولوجية فى موضع آخر حيث يقرر : « أن الضفيرة الشمسية (وهى كما قلنا عضو العقل الباطن) تنقبض فى الحالات النفسية السلبية ... » وهو لا ينسى أن يعاود الكرة فى نهاية كتابه حيث يقول : « إذا فرضنا أنك تنشد قوة البصر مثلا . فما عليك إلا أن تفكر فى هذا وتتأمل فى هيئة ما تريد ثم تعزز ذلك بعبارات منطوقة فيصل مضمونها إلى ضفيرتك الشمسية عن طريق

الجهاز الارادى والعصب السمبتاوى . » والناقد لا يسعه أن يعلق على هذه المعلومات التى يسوقها المؤلف إلى قارئه إلا بقوله إن طالب السنة الثانية من قسم الفلسفة باحدى الجامعات المصرية ، إذا كتب هذا الكلام فى امتحان مادة المقدمة البيولوجية لعلم النفس ، لسقط شر سقوط . بل ماذا أقول . إن طالب المدارس الثانوية يعلم أن الجهاز الليمفاوى إنما هو جزء من الجهاز الدورى ، ومن ثم لا يمكن أن تكون الضفيرة الشمسية « كتلة ليمفاوية تقع وراء المعدة » . واضح أن ما وقع فيه المؤلف من خلط يرجع إلى أنه لا بد أن يكون قد سمع أن الجهاز العصبى ينقسم إلى جهاز إرادى وجهاز لا إرادى ولما كان قد وصل إلى علمه أن العقل ينقسم إلى عقل واع إرادى وعقل باطن لا إرادى ، فقد أصبح الاغراء شديداً فى أن يجعل الجهاز الارادى موطن العقل الواعى ، والجهاز اللا إرادى موطن العقل الباطن .

غير أن المؤلف لا يقف عند هذا الحد من التخبط فى الأوليات الفسيولوجية فنراه يقول فى ص ٨ : « إن العقل الباطن هو مصدر جميع الحركات اللا إرادية والانعكاسية . » إذن وفقاً لما قاله تكون الأفعال المنعكسة من عمل المجموع السمبتاوى وهذا دليل على أن المؤلف يجهل ما يعرفه طلاب المدارس الثانوية من أن الأفعال المنعكسة هى من عمل المراكز المخية الشوكية على أن الناقد يعترف أنه لا يزال غير قادر أن يحدس الترابط العقلى الذى أدى بالمؤلف أن يجعل الضفيرة الشمسية « عضو العقل الباطن » ، ناسيا ما يقوله فى ص ١١ من أن العقل الباطن هو مخزن الذاكرة » غافلا عن أن ذلك لا بد أن يدفع القارىء إلى أن يستنتج أن الذكريات تختزن فى الضفيرة الشمسية التى تقع وراء المعدة !

فاذا نظرنا فيما عقد المؤلف من فصول فى « التحليل النفسانى عمليا ونظريا » نرى تخبطه فى الأوليات السيكولوجية لا يقل عن تخبطه فى الأوليات الفسيولوجية. فهو يشق على نفسه وعلى القارىء بالخوض فى مشاكل التحليل النفسى ، ثم ينتهى بأن يسوق إلينا فى الخاتمة طائفة من النصائح فى الايحاء الذاتى . تلخص ما سبق أن دسه هنا وهناك من فنون الايحاء أثناء حديثه عن أصول التحليل . فكأن المؤلف لم يفطن إلى هذه الحقيقة الأولية ، حقيقة أن الايحاء إنما هو نقيض التحليل . ولعل تعريف المؤلف لبسائط علم النفس مثل الكبت والتنازع والعقدة النفسية ، أبلغ فى الكشف عن نوع ما يقدم لنا من بضاعة علمية . فهو يقول عن العقدة النفسية إنها « ارتباط لاواع بين فكرة وفكرة » . ويسوق لبيان ذلك تجربة بافلوف المشهورة دون أن يذكر أن الترابط فى تجربة بافلوف يسمى بالفعل المنعكس الشرطى كما

يعرف ذلك جيداً طلاب المدارس . والنتيجة من ذلك إذن أن الفعل المنعكس الشرطى عقدة نفسية ! أما عن الكبت فهو يحدثنا ص ٥٥ قائلا « قد تقوم فى الانسان رغبة جنسية ، ويشعر بميل شديد إلى ممارسة العملية الجنسية . . ثم يقرر أخيراً وجوب الامتناع عن ممارسة هذه العملية لما لها من عواقب وخيمة . . . فى هذه الحالة يكون الانسان كابتاً للغريزة » واضح إذن أن المؤلف يجهل أن الكبت (repression) إنما هو عملية لاشعورية ، وأن ما ذكره إنما هو عملية كف (inhibition) وهو يحدثك عن التنازع ص ٥٠ فيقول « فى العقل الباطن قوة تسعى للحصول على الافراج . وفى العقل الواعى سلطة وقوة تحول بينه وبين نيل مشتهاه . . . من هنا ينشأ التنازع النفسانى » . وهذه نتيجة منطقية لجهله بطبيعة عملية الكبت اللاشعورية. ولكننا نعجب كيف أنه لم يخطر للمؤلف أنه إذا كان الكبت عملية شعورية يقوم بها العقل الواعى فهذا يعنى أن العقل الواعى واقف على ما يدور فى العقل الباطن ، وبالتالى لم يعد هناك عقل باطن أى دوافع خفية . ولم تعد هناك حاجة إلى التحليل أى إلى الكشف عن معميات !

وليس هذا كل شىء . فالمؤلف يعقد فصلا فى ممارسة التحليل النفسى وفاء لما وعد به القارىء فى مقدمة الكتاب من أنه سيقدم له بحثا عمليا شاملا يمكنه من ممارسة التحليل النفسى مع نفسه ومع غيره من الناس . ولم لا . أليس يقول المؤلف للقارىء بصدد مركب النقص : « وكثيراً ما نصادف هذا النوع فى حالات العصبيين الذين يترددون على مختلف العيادات ، فلا يجدون لأنفسهم علاجا طبيا فيلجأون أخيراً للعلاج النفسى . فكم من شاب وشابة « جاءتنى » وهى لا تدرك شيئا عن المسائل الجنسية ، وفى معظم الحالات كان مجرد شرح الحقائق الجنسية شرحا وافيا صريحا ، كافيا لتلطيف حالتهم » وهو يفصل القول ص ٥٩ فيكتب « أنى أعرض على القارىء إحدى الحالات التى عالجتها » .

حقا ليس فى هذا الكتاب من طريف غير صورة مؤلفه الفوتوغرافية وعنوانه حتى يتصل به من يشاء !

وبعد ، فان الأمر جد خطير . فهؤلاء سكان الريف فى هذا البلد الشقى تفترسهم ألوان من الأمراض المتوطنة ، ثم هؤلاء سكان الحضر يأتيهم وباء اجتماعى خطير ، هو وباء الدجل باسم العلم يفترس النفوس الضعيفة ، وخاصة نفوس النشء لما تتميز به مرحلة المراهقة من تقلقل يجعلهم هدفا سهلا للاراجيف . ومما يزيد فى خطورة وباء

الدجل أنه يستعين باداة النشر . وهذا يدعونا أن نلفت نظر أصحاب بيوت النشر إلى أن المعونة التى تقدم إلى مقترف الاثم إنما هى اشتراك فيه . إن المسئولية الأدبية واضحة. لسنا نجهل أن الطباعة والنشر مهنة تجارية قبل كل شىء . ولكن قيام المسئولية الأدبية يدعو إلى الحذر ، فلا ينبغى أن تفتح أبواب المطابع لكل طارق . ولسنا نزف إليهم بدعاً . ففى مصر ناشرون لم يصدروا مطبوعاتهم إلا بعد أن جعلوا أمر اختيار المؤلفين والكتب إلى لجنة من كبار الكتاب . أليست هذه سياسة أبعد نظراً من الناحيتين الأدبية والتجارية معا ؟

م . ز

•

مشاكل الشباب النفسية : الدكتور أحمد عزت راجح

جماعة النشر العلمى . مكتبة نهضة مصر بالفجالة (ابريل سنة ١٩٤٥)

هذا كتيب نافع لما وضع له . فقد قصد به مؤلفه — كما يتبين ذلك من بين سطوره عرض بعض مسائل ما اصطلح على تسميته بالصحة العقلية ، عرضاً موجزاً فى أسلوب يفهمه غير المختص . وفى رأينا أن الكتاب باعتباره كذلك قد أصاب هدفه ، ولا نرى فيه مأخذاً غير بعض الهنات الهينات فى باب الأمراض العصبية والعقلية ، وهى بعد كل شىء مغفورة لكاتب لم يدع لنفسه خبرة بالمسائل الاكلينيكية ، ثم إغفاله إبراز الدوافع العدوانية — كما فعل بالدوافع الجنسية — كعامل خطير فى المشاكل التوافقية .

والكتاب بعد صيغ فى أسلوب سليم برأ من الابتذال فى اللفظ والمعنى ، تلمس من قراءته أن مؤلفه يحترم عقل قارئه . حريص على التزام حدود التأليف الجدى بالرغم من التبسيط . ولذلك فاننا نوصى بقراءته .

م . ز

•

النوم والأرق : للأستاذ أبو مدين الشافعى

ماجستير فى الآداب — ٥٠ صفحة مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٤٥

محاولة جديدة قيمة لبحث موضوع النوم فى ضوء منهج علم النفس التكاملى . لقد تضاربت الآراء حول نظريات النوم واختلف العلماء فى تعليله وتحديد أسسه وبواعثه.

وقد تعصب البعض للناحية الفسيولوجية فحاول إرجاع عملية النوم إلى العوامل الفسيولوجية المحضة ، وحاول البعض الآخر إرجاعها إلى الناحية السيكولوجية البحتة ، منوهاً بما لعامل « عدم المبالاة » désintérêt من أهمية كبرى ، وقد وجد الفريق الثانى فى أثر الايحاء دليلا كبيراً على أهمية العامل النفسى فى إحداث النوم . وقد لاقت فكرة إرجاع النوم إلى التعب قبولا كبيراً لدى كثير من البحاث وساعدت بعض التجارب الفسيولوجية على تأييد هذه النظرية ووصل الأمر ببعض البحاث إلى الاعتقاد بوجود مراكز خاصة للنوم فى الدماغ ، إلى أن جاء العلامة كلاپاريد Claparède فحاول تعديل هذه النزعة الفسيولوجية البحتة وقال بنظريته البيولوجية التى تحاول أن تكشف عوامل النوم بالاعتماد على وظيفة النوم الحيوية : « لا ننام لأننا نتعب ولكننا ننام لكيلا نتعب » وليست مسألة الصلة بين النوم والتعب بالبساطة التى تبدو لنا ، إذ أن ظاهرة التعب نفسها جد معقدة ويقتضى تحليلها معرفة شاملة لمختلف الوظائف الجسمية والعمليات النفسية صلة الحيوان بالبيئة الخارجية . فالتعب نتيجة كفاح الكائن الحى مع الوسط الخارجى ولهذا السبب كان من الضرورى دراسة عامل الانفعال فى النوم ومن هنا جاء اعتناء كلاپاريد بعاملى الاهتمام وعدم المبالاة فى انتقال النشاط النفسى من اليقظة إلى النوم .

وأهم خطوة يخطوها المؤلف فى هذه الرسالة هى إيجاد أساس لنظرية كلاپاريد وتوسيعها . فقد حاول كلاپاريد أن يشرح النوم كأنه فعل مستقل ولم يوفق فى شرح عملية التنويم المغناطيسى وبيان العلاقة الموجودة بين النوم والتنويم ففصل بينهما فصلا تاماً .

ويوضح لنا المؤلف أن هذه الصعوبات تتلاشى إذا نظرنا إلى النوم نظرة شاملة تكاملية لا كعملية خاصة يمكن دراستها مستقلة عن دراسة النشاط النفسى . ويجد القارىء تخطيطاً واسعاً ومبادىء عامة لنظرية جديدة فى فصل « النوم والانتباه »(ص ١٤). فنظرة شاملة للنشاط النفسى الممثل فى الانتباه تجعلنا نفهم العلاقة بين النوم واليقظة كدرجتين مختلفتين لشدة الانتباه . وقد استفاد كاتب الرسالة من بحثه « الانتباه الارادى »[1] وما انتهى إليه فيه من أن النوم ليس بالحالة السلبية وأن الانتباه غير منعدم أثناء النوم . وبهذا نفهم تفاوت درجات العمق فى أثناء النوم ، كما أننا نفهم

---

(١) وهى الرسالة التى نال بها الأستاذ أبو مدين الشافعى درجة الماجستير فى الآداب من جامعة فؤاد الأول سنة ١٩٤٤ .

حقيقة النوم الجزئى والنوم الصناعى والتنويم المغناطيسى ، إذ أن ربط دراسة النوم بدراسة الانتباه تجعلنا نفهم علاقة الحواس بالنوم .

ودراسة أسباب الأرق تلقى ضوءاً جديداً على دراسة النوم وقد حاول صاحب الرسالة تدعيم نظريته وبيان صلة العوامل الفسيولوجية والنفسية والاجتماعية بالنشاط النفسى . وقد أضاف إلى الفائدة العلمية بعض النتائج العملية التطبيقية فى علاج الأرق .

ولا شك أن هذه الرسالة ، على الرغم من بعض مواطن النقص جديرة بكل ثناء لأنها محاولة شخصية مبتكرة لمعالجة موضوع من أدق الموضوعات وأكثرها تعقداً . وهى تنم على اطلاع واسع وخاصة عن تفكير شخصى قوى وقدرة على الربط بين مختلف نواحى الموضوع .

ى . م

•

الزمان الوجودى : تأليف الدكتور عبد الرحمن بدوى

٢٤٠ ص . مكتبة النهضة المصرية (سنة ١٩٤٥)

كثيراً ما نسمع أن علم النفس انفصل عن الفلسفة وأصبح علماً مستقلا . ويبدو لنا هذا الحكم عجيباً فى الوقت الذى أخذت فيه جميع العلوم تدرك ما للمذهب الوضعى الذى أنشأه أوجست كونت من قصور عن فهم لب الواقع . فان جميع المشكلات العلمية بلا استثناء تلتقى عند قمتها بالمشكلات الفلسفية الجوهرية التى ما فتىء العقل الانسانى يطيل فيها النظر والتأمل منذ نشأة الفلسفة فى بلاد اليونان . وعلم النفس كسائر العلوم لا يزال مرتبطاً بالفلسفة الأولى فى كثير من مشكلاته الجوهرية كمشكلة التذكر والذات الشاعرة والشخصية وطبيعة المعرفة الخ . . وأقوى دليل على ارتباط علم النفس بالفلسفة تعدد المدارس السيكولوجية على الرغم من أن الوقائع هى هى لا تتغير ، بل يرجع الخلاف فى تأويلها إلى ما ينطوى عليه كل مذهب فى علم النفس من مبادىء فلسفية كثيراً ما تكون ضمنية كامنة .

هذه هى بعض الاعتبارات التى خطرت لنا فى أثناء قراءة « الزمان الوجودى » للدكتور عبد الرحمن بدوى . وهو كتاب يعرض لنا الخطوط الأولى لمذهب فلسفى جديد تمتد جذوره إلى أعماق علم النفس ، إذ أن مؤلفه يتخذ من الزمان الحى الخلاق محوراً لبحثه الفلسفى . والعبارة الأولى التى افتتح بها الفصل الأول وهى « وجود الانسان نسيج من الواقع والامكان ، يحاك على نول الزمان » جديرة بأن

تتخذ شعاراً لكل سيكولوجي يجعل من الذات الجاهدة فى تحقيق غايتها فى الوجود الموضوع المركزى لبحثه . وفكرة الزمان الحى — التى تختلف كل الاختلاف عن الزمان الرياضى — تثير مشكلة الفاعلية فى الوجود وإيجاد الجديد الذى لا يمكن التنبؤ به تماماً كما أثبتته بطريقة قاطعة ، لا النظريات الفلسفية البحتة ، بل أحدث النظريات فى علم الطبيعة .

وبما أن المشكلة التى أثارتها جميع العلوم الطبيعية والتى يثيرها علم النفس فى كل خطوة من خطواته هى، تعليل الجدة المطردة فى الكون وفى الذات الانسانية الفردية فيصبح من المحتم إعادة النظر فى المنطق الرياضى والبحث عن منطق جديد لا يدع لباب الوجود وما يمتاز به من خلق مطرد ينفذ خلال حلقات شبكته ، منطق يقوم على ما يقوّم الوجود على الرغم من طفراته ويعترف بالتوتر الذى يشد آنات هذه الطفرات بعضها إلى بعض .

والبحث عن هذا المنطق الجديد هو ما صنعه المؤلف بعد استعراض مفصل دقيق لتطور فكرة الزمان فى الفلسفة والعلوم . فبعد أن بين عجز المنطق الرياضى الذى لا يخرج عن دائرة الإمكان ، استبدل به منطق الوجدان ، وهو منطق التوتر ، لكى تنفذ بكلياتنا إلى صلب الواقع . وهنا قام المؤلف بمحاولة جريئة ، جمعت بين عمق الفيلسوف وذوق الفنان ، فقدم لنا لوحة لمقولات هذا المنطق الجديد الحى وقسمها إلى قسمين ، مقولات العاطفة وهى الألم والحب والقلق ومقولات الارادة وهى الخطر والطفرة والتعالى ، كأنه يريد أن يشير إلى هاتين الناحيتين الساعيتين نحو التكامل فى الذات الفردية ، ناحية التأثر والانفعال وناحية التأثير والفعل . ثم تتبع الحركة الديالكتيكية التوترية التى تدفع بالموجود نحو تحقيق غايته ليبين لنا كيف يتمخض الصراع القائم بين النقيضين عن خطوة جديدة فى خلق الجديد وزيادة الوجود ثراء . وقد برع حقاً فى محاولته تهيئة ذات القارىء لاختبار هذه الآنات من الديمومة التى تكون نسيج الوجود ولتوجُّدِها ، أقصد إدراكها بالوجدان . وقد استحق الدكتور عبد الرحمن بدوى عن جدارة ما لقبه به الدكتور طه حسين بك حينما قال ، فى أثناء مناقشة هذه الرسالة فى كلية الآداب لدرجة الماجستير : إنه أول فيلسوف مصرى ، ويحق لمصر فعلا أن تفخر بفيلسوفها الشاب .

هذا وقد قرأنا فى عدد مايو لاحدى المجلات الشهرية صفحة عن هذا الكتاب تعطينا صورة عجيبة عن النقد العلمى . فصاحبها — ومن أوحو إليه بها — لم يشأ أو لم يستطع أن ينقد الكتاب وما فيه من مذهب وافكار ؛ فراح يلفق اخباراً

عن آراء اناس فيه لست أدرى كيف سولت له نفسه أن ينسب إليهم هذه المزاعم ، ثم حاول أن يدعى شيئاً من العلم بالفلسفة فذهب يناقش « تصدير » الكتاب بعبارات هى أبلغ دليل على أن صاحبها بينه و بين الفلسفة وفهمها مراحل طويلة .

فقد زعم أول ما زعم أن اسلوب الكتاب كالرصاص الثقيل . وهذا شعور طبيعى بالنسبة إلى من لم يشارك فى الفلسفة بأى نصيب . و إذا كان الكتاب يحتاج إلى شدة تنبه وحشد للخاطر ، ومعرفة بآخر تطور للفلسفة ، فليس هذا مما يضير فى شىء ، لأنه لم يقصد به إلى العامة ومن إليهم ، إنما هو عمل فلسفى رائع يحتاج فى فهمه وتقديره إلى جهد وملكة ، شأنه شأن أمثاله من الأعمال الفلسفية الانشائية التى تأتى بجديد فى ميدان الفكر . لهذا فنحن نعد ذلك النعت الذى أضافه الكاتب إلى اسلوب الكتاب واحداً من مفاخره .

ثم نسب إلى الأستاذ المستشرق لو يس ماسينيون رأياً فى الكتاب عجبنا من الكاتب كل العجب أن يلجأ إلى مثل هذه الأساليب فى التضليل التى يجب أن تترفع عنها مجلة علمية محترمة . ولو علم الكاتب ما قاله فعلا الأستاذ ماسينيون لتمزق قلبه وقلوب جميع الحاسدين . فقد أشاد به إشادة كبرى نرجو أن يسجلها كتابة فلا يدع مجالا لمثل هذه المزاعم .

وأعجب ما فى كلام ذلك الكاتب زعمه أن فى الكتاب ثلاثين صفحة مأخوذة من كتاب « الوجود والزمان » لهيدجر Heidegger ، دون أن يشار إليها . ونحن نتحدى الكاتب أن يدلنا فى هذا الكتاب على فقرة أو جملة واحدة أخذت من كتاب هيدجر هذا دون أن يشار إليها . ونعلم أن الكاتب لا يستطيع أن يقرأ كتاب هيدجر على الأقل لأنه باللغة الألمانية ، وهو لا يعرف منها حرفاً واحداً هو ومن أوحوا إليه وأملوا عليه . والكتاب لم يترجم إلى الفرنسية كما ادعى الكاتب ، بل كل ما ترجم منه إلى الفرنسية سبع وخمسون صفحة (صفحات من ٢٣٥ إلى ٢٦٧ ومن ٣٧٢ إلى ٣٩٧) — والكتاب فى اربعمائة وثمان وثلاثين صفحة — ترجمها كوربان Corbin فى المنتخبات التى انتخبها من مؤلفات هيدجر ونشرها بالفرنسية بعنوان « ما الميتا فيزيقا » وقد أشار إليه الدكتور بدوى فى رسالته . ولسوء حظ كاتب ذلك النقد — ومن أوحوا إليه به — ان هذه الصفحات ال ٥٧ التى ترجمت إلى الفرنسية لا تتصل اتصالا ظاهراً بموضوع كتاب الدكتور عبد الرحمن بدوى ، ولهذا

فان جميع المواضع التى اقتبسها وأشار إليها الدكتور بدوى فى كتابه لم يكن منها واحد يدخل فى هذا الصفحات التى ترجمت إلى الفرنسية .

ألا ليت أحد الذين أوحوا إلى هذا الكاتب ما كتب وأوقعوه فى هذه الورطة ان يجرؤ على قبول ذلك التحدى !

ى . م

•

فى الشعر وعلم النفس

الفن ومذاهبه فى الشعر العربى : للدكتور شوقى ضيف

المدرس بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول الطبعة الثانية ٣٨٦ ص . (سنة ١٩٤٥)

من علائم النهضة الفكرية فى هذا البلد اليوم اتجاه الباحثين والنقاد إلى إقامة دعائم نظرياتهم وآرائهم على مبادىء من علم النفس . ولعل أبرز من وفق فى هذا الاتجاه فى الشعر هو الدكتور شوقى ضيف صاحب كتاب الفن ومذاهبه فى الشعر العربي الذى يوضح فى جلاء تطور الخصائص الفنية فى الشعر وفق تطور الخصائص الفكرية فى العصور المختلفة وتغير الخصائص النفسية فى الشعراء المختلفين . . . فبعد أن يعرض علينا فى أمتع أسلوب احتفال العرب القدماء بظاهر اللفظ ودلائل الحس يقف عند أبى تمام كأبرع شاعر من شعراء المعانى استطاع أن ينهض بالتيارات النفسية والاتجاهات الفلسفية نهضة فنية لم يسبق لها ولم يلحق بمثلها ، مبيناً كيف أخطأ القدماء فهم هذا الشاعر لضيق أفقهم وقلة ثروتهم النفسية ، وكيف أن النقد الصحيح يجب أن يقلع عن هذه السطحية ويتخذ سبيلا عميقاً من النظر النفسى والفلسفى . وفى هذا يقول فى ص ١٢٢ من كتابه .

« ونحن لا نصل إلى القرن الثالث حتى يختل التوازن بين النقاد والشعراء فقد كان أكثر النقاد من الرواة واللغويين الذين لا يتصلون بالثقافة الحديثة فكرهوا الحديث على هذا الأساس وأحبوا ما يتصل بعمود الشعر العربى وآثروه على ما يتصل بعمود الفلسفة والثقافة الحديثة . ونحن لا نستجيب لحكم هذه الطائفة على أبى تمام بل نحن نقف مع أنصاره من أصحاب المعانى والفلسفة فان من يطلب اللذة العقلية فى الفن لا بد أن يعجب بهذا الشاعر المتفلسف الذى ما يزال يستهدف للخواطر الباطنة

والمعانى العويصة . . . فاذا هو ينحرف عن عمود الشعر المألوف، ولكنه انحراف محبب إلى نفوسنا رغم لوم اللائمين ونقد الناقدين » .

والدكتور شوقى ضيف إنما يقرر قواعد هذا النقد النفسى الجديد ويطبقه تطبيقاً رائعاً فى الشعر العربى حتى أوائل العصر الحديث فيوجه بذلك تيارات الشعراء وجهات جديدة — أساسها النظر النفسى والفكر الفلسفى الذى لا يرى فى سواه سبيلا لارتقاء الأثر الفنى فى مصر ، مبيناً النحو النفسى فى العبارة الفنية وكيف يجب أن تحتفظ بروائها الوجدانى مع تضمنها أعمق الخواطر وأدق الاحساسات والأفكار . فيحسم بذلك أكبر نزاع قام بمصر منذ بدأت نهضتنا الأدبية إلى اليوم ، بين أنصار المعانى وأنصار اللفظ الذين تخبطوا كثيراً فى التعبير عن وجهاتهم فضلوا السبيل لعدم فهمهم ما يجب أن تكون عليه الصلة بين الفكر الفلسفى العميق والتعبير الفنى الرقيق ، فاذا بشعر الطائفة الأولى أشبه بالنثر فكرة وأسلوباً يضيق فيه مجال الخيال والعاطفة ويكثر فيه التحليل والاستقصاء ، وإذا بشعر الطائفة الثانية فج يتعلق بذيول الموسيقى الحسية وقد خلا من كل توليد معنوى أو تصوير وجدانى . ولكن مؤلفنا البارع يرى غير هؤلاء جميعاً ، فالفكرة هامة والوجدان أصيل وكلاهما يجب أن ينسجما معاً فى موسيقى نفسية ، عناصرها فنية خاصة يتألف منها أسلوب الشاعر ، وتتميز بها خصائص شعره .

ويطول بنا المقام إذا نحن أردنا عرض هذه الخصائص التى كشف عنها فى التعبير الفنى ، فهى كثيرة وعميقة . ولكنا مع ذلك سنذكر نموذجاً منها يوجه الأنظار إلى هذا البحث القيم الذى فتح به فى ميدان الشعر فتحاً جديداً يجدر بالمشتغلين به النظر فيه والأخذ به . . فمن ذلك كشفه عن خاصية نفسية وجدانية من أهم الخصائص التى يحمل بها التعبير الفنى وهى كما تسمى « نوافر الأضداد » تتضح فى قول أبى تمام بما فيه من تناقض وتضاد وبما فيه من أصباغ زاهية وأخرى قاتمة :

قد غرستم غرس المودة والشـحناء فى قلب كل قار وباد
أبغضوا عزكم وودوا نداكم فقروكم من بغضة وواد

أو كقوله :

ولهت فأظلم كل شىء دونها وأنار منها كل شىء مظلم

ومثل هذا اللون الفنى إنما هو خاصية وجدانية يتميز بها منطق العاطفة الذى كشف عنه علماء النفس المحدثون . . من أنه يقول بالتناقض ويأخذ بالتضاد فى الوقت الذى

لا يقر له منطق العقل بشيء من ذلك . وإذ يتبين الدكتور شوقى ببصيرته الصافية هذه الحقيقة ويرى شيوع هذا اللون الفنى فى شعر أبى تمام يبحث عما إذا كان هذا تعبيراً عن ميزة باطنة نفسية من مميزات سلوكه تطبع تفكيره فتطبع فنه . فيوفق إلى أن مزاج أبى تمام وهو شيء نفسى ساعفه بهذه الثروة الطيبة الممتازة ، فقد كان أبو تمام نفسه متناقضاً فى أفعاله وأخلاقه إذ كان تارة كريماً وتارة بخيلا جداً . وكان تارة متديناً مسرفاً فى التدين وتارة ملحداً مسرفاً فى الالحاد . . . الخ . ولست أرى كال القول بالعلية فى هذا الشأن . . . ولكن فى مثل هذا الاتجاه إثارة لمشكلة هامة من المشاكل التى تهم المشتغلين بعلم النفس ولا سيما التكاملى منه وهى مدى اتفاق التفكير النظرى وطريقته والتعبير الفنى وخصائصه مع الأسلوب العملى ومسالكه . فان الكشف عن الوحدة المنتظمة المنسجمة فى الحالة السوية أيسر منها فى الحالة الشاذة ولا سيما إذا كنا بصدد فهم معنى التكامل فى الشخصية . ومع ذلك فهناك فى نظريات علم النفس التحليلى ما يفسر هذه الصلة الوثيقة بين الأدب والحالات النفسية الشعورية واللاشعورية .

ولما كان الأدب من أهم المقومات الاجتماعية ، فان مثل هذا التوجيه الذى أراده الدكتور شوقى ضيف للأدب والشعر سيكون أبعث على النهضة من ذلكم الجدل المضطرب الذى لا يستند إلى بحث علمى منظم . وكم نود لو تعم هذه النزعة جميع فروع الثقافة ويهتم جميع الأدباء بهذا الجانب الذى أصبح عمدتنا فى نهضتنا الحديثة . وكم نود لو تناول الدكتور شوقى ضيف بمثل هذا الاهتمام شعراء العصر الحديث ناقداً وموجهاً فلعله من أقدر من يمكن أن تسند إليهم هذه المهمة الحيوية .